جنة الشوك (*)

لم أهنأ بهذا الكتاب في عدد المقتطف السابق ووعدنا بنقده وتقديره التقدير اللائق به وهؤلاء . والحقيقة ان الكتاب نسيج وحده بين الكتب التي ظهرت في العهد الأخير . أما من حيث الاسلوب فهو أسلوب الدكتور طه حسين حيث ينطلق بعض الأحيان انطلاق السهم إذا صدر عن عقيدة ، فان صدر عن تعمل تعثر ومشى يترنح ذات اليمين مرة وذات اليسار مرة ، فيشعرك بأنه يتعمل وأنه يريد أن يصل الى غرض يحاول أن يخفيه محاذراً أن يُسبق ، يقطّع الكلام ثم عن غرضه كلة أو عبارة ، فاذا اجتاز هذه المرحلة الشاقة للعبرة التي قد تشعرك أن أنفاسه كادت تنقطع فيها ، انطلق مرة أخرى انطلاق السهم ، فهو يفرض على نفسه هذه العبودية بعض الزمن ، حتى إذا ضاق بها ذرعاً خانته الارادة وضاق صدره بما فرض على نفسه من تلك القيود ، فانفجر كأنما هو حبيس انفرجت عن نفسه أعواد حديدية كانت تكبت مشاعرها وأهواءها ، فراح يمرح في رحاب الحرية ، فلا يلبث أن يظهرك على ما حاول أن يخفي في نفسه ، والطبع يغلب .

وليس هذا الكتاب نسيجاً وحده بين الكتب التي ظهرت في العهد الأخير ، بل هو نسيج وحده بين كتب الدكتور طه حسين . فهو من حيث أنه أدب شيء جديد ، ومن حيث أنه سياسة أسلوب ورمزي يغشى عليه الغموض وتضارب المعاني بعض الأحيان ، ويفلت منه زمام الرمزية أحياناً أخرى فيظهر مكشوفاً مفضوح الأغراض . ومن حيث أنه تهكم صقيل قد يقود بعض الشباب أو الكثير منهم ، وهم الذين يتطلعهم المؤلف في المقدمة ، الى مزالق وعرة وإلى اتجاهات خلقية أراد المؤلف أن يحاربها فلم تمكنه الرمزية التي ساق فيها عباراته من اظهار غرضه ، فساق القول بحيث يظهر أنه يؤيد الناحية التي حاول أن ينفيها ، والقادرون من شباب هذا الجيل على استخلاص المعاني المستترة قلائل ، بعد أن غمرتهم موجات الأدب الأصفر المعروف . ومن حيث انه اجتماع فيه دعوة قوية الى الاشتراكية وتوقع الثورات

(*) من مطبوعات دار المعارف للطباعة والنشر تأليف الدكتور طه حسين ٢١٦ صفحة من القطع الصغير

المحطة . ومن حيث أنه خطة فيه بشارة سافرة بحرب الطبقات . ومن حيث انه عجاء وجرجة في بعض المواضع كأنه الزئبق ، وصارم صافي الحديدة كأنه الشعاع في مواضع أخرى . وجرجة اذا حاول ان يساوم ، وصارم إذا أراد أن يبيع بيع السماح .

***

أما ناحية الادب في هذا الكتاب فلا تخرج عن أنها تجديد في الصورة والوضع . أما الأسلوب فشائع عند العامة في أمثالهم وأقوالهم واشاراتهم الخفية ، إذا أرادوا أن يتمضوا ولا يبينوا . ويكفي أن يوفق الأديب الى الابتكار في الصورة وفي الوضع . فان هذا في الواقع هو الابتكار بعينه . أما القول بأن الابتكار خلق من العدم فإفراط هو في الحقيقة بُعد عن كل انصاف .

أنظر كيف يقول في السياسة : أن فلاناً يطلب الجلاء السريع بعد الحرب ، وانه يطلب هذا حتى يلي الحكم أو يشارك فيه (ص ٦٣) السياسة عندما يكثرون عند الطمع ويقلون عند الفزع (ص ٦٥) فضرورات أحكامها ، والرجوع الى الباطل أنفع وأجدى من التمادي في الحق ص (٨٩) لم تستند عظائم الامور الى قوم لا يعقلونها ، ولا يقدرون على النهوض بها ، ولا بأيسر منها ؟ لأن السياسة كالطبيعة لها حكمة لم تستطع عقول الناس أن تفهم حقائقها بعد (ص ١٠٣) أيُّ وعود الرجال أشبه بوعود النساء ؟ ووعود الساسة حين يطلبون النيابة عن الشعب ، أو النهوض بأعباء الحكم (ص ١٢٨) . قال لبيد (ص ١٥٣) .

ذهب الذين يُعاش في أكنافهم وبقيت في خَلْفٍ كجلد الأجرب

قال من يرمز المؤلف ؟ من الذين ذهبوا وكان يعاش في أكنافهم ، ومن الذين بقوا وهم كجلد الأجرب ؟ لا ندري ! فقد تقلب المؤلف بين جميع الأحزاب السياسية عملاً بحكمته (الضرورات تبيح المحظورات : ص ٣٤) .

تخيل المؤلف رئيس عصابة فرّق أصحابه في الشطار فعاد كل منهم بحصة تختلف عن حصة صاحبه من المسروقات ، وأراد أصحاب القلة أن يساووا أصحاب الكثرة في القسمة ، وهمّ اللصوص أن يجادلوا الرئيس ، فاضطرهم الى الصمت والاذعان ، لأنه أفحمهم بأن يرفع أمرهم وأمره الى الشرطة (ص ١٦٥) .... ندرك هنا أن الشرطة مرموز بها إلى الشعب المسروق ، أما من هم اللصوص ؟ فالمؤلف ولا ذلك أعرف الناس بهم . أهم القلة والكثرة جميعاً ؟

فلان يتملق حزب الكثرة وحزب القلة جميعاً ! لماذا ؟ لأنه يحتاج إلى الحزبين ، ولأن الحزبين يحتاجان اليه (ص ١٨٨) فمن هو ذا ؟ فتخيل ، ولنا الحق أن نتخيل ، أنه كاتب

يتصل بالعوام أما الاسم فمنذ رمزية الأستاذ المؤلف ، وهو بالطبع أعرف الناس به أيضاً .

اترك السياسة وانظر كيف يقول في التهكم : أدبتنا الحياة بأن للغم مرارة تبيح المحظورات (ص ٣٤) ونحن لا ندري أي ضرب من ضروب الحياة أدبنا هذا الأدب الا حياة الوصولية والانتهازية . وهو ضرب من الأخلاق أجاد المؤلف وصفه في الكتاب كأنه به خبير .

وتب فلان أمس من أقصى اليمين إلى أقصى الشمال . لماذا ؟ لأنه يئس من رضا الحكام فابتغى رضا الشعب ! ذلك بالرغم من أنه يقال لا معنى لليأس مع الحياة ولا معنى للحياة مع اليأس ! فان سُدَّت له أسباب الحياة ودعاه الأمل إلى اليمين ، فربما أخرى تردُّه من رضا الحكام إلى ما يريد . وما دام الانسان قادراً على أن يذهب ويجيء ، فلا جناح عليه في أن يذهب ويجيء . أما اليأس فوسيلة لا غاية (ص ٦٤) ..... وفي هذا عبارة تدل على أنه يئس شخصاً أو أشخاصاً من الحزب الوطني ، وأكبر الظن أن ذلك حسين آخر من يتيقن له أن يحمق في هؤلاء .

الحياة قد علمتنا أن الضرورات تبيح المحظورات . ومن المحظورات أن نجهر من جفاء السلطان . فقد تصدُّك صلته عن بعض ما تحب ، وتصرف عنك بعض ما تتمنَّى (ص ٧٤) ويقول إذ طريق الرقي في ساسب الدولة إسداء الثناء إلى غير الأكفاء ، وإهداء الحجاء إلى ذوي الكفاء ، وغض الحصانات والخوض في الأعراض بغير الحق (وليست أدري متى كان الخوض في الأعراض حقاً) وجفوة الصديق وخيانة الخليل (ص ١٠٢) . قرأت يوماً قرأت من شعر كاتول (شاعر روماني وسم اسمه الحقيقي قاطُلُس) مقطوعة يهيِّئ فيها نفسه للموت ، بل يحث فيها نفسه على الموت ، لأن فلاناً وفلاناً من مواطنيه قد رقيا إلى منصب القنصل . فأعجبني سخريته اللاذعة ، كما أعجبني قول الشاعر العربي .

تأهَّبْ لحَدَثٍ النازل قد قُرِيءَ الشعر على كامِلِ (ص ١٠٢)

وكامِلٌ هذا ، على ما يظهر ، إنسان أنعم عليه برتبة ومنصب سامي خطير . فحمد المؤلف هذا حدثاً نازلاً ينبغي أن يتأهب الناس لدفعه ، لأن كاملاً إذ أصبح متصرفاً في ذلك ضاع لفهمي وفهم المؤلف وفهم الناس . ولا شك أن ذلك يكون من « ملهيات الكبار » كما يقول بشار

إذا صُرف فلان عن السلطان أطاق لسانه بالشر في الناس جميعاً . فاذا رُدَّ اليه أطلق

لسانه بالثناء على الناس جميعاً . لأنه يسخط فلا يقول إلا شراً ، ويرضى فلا يقول إلا خيراً ، وقد جعل بينه وبين خير الأمور ، وخير الأمور أوسطها (ص ١٧٥) ..... وهذا الضرب من التهكم غث ولا قيمة . فإن عصمه إنك إذا توسطت في القدح والثناء ، بحق وبغير حق بالضرورة ، كنت في غير الأمور . وليس في هذا خير على إطلاق القول . ومن هذا وأمثاله مما نقلنا عن الكتاب ، ترى أن ناحية التهكم فيه مضت في صورة لصالح خطيرة النتائج شديدة الأثر في الأخلاق .

وفي الكتاب نزعة اشتراكية وتوقيع لخطوب اجتماعية جسام وفورات عنيفة تحرق الأخضر واليابس وتأتي على النائم والقائم . يقول : أعرف أوعية لا تمتلئ وآنية لا تفيض ، في خزائن الأغنياء وعقول العلماء وجهلهم ! ولكن أناة واحداً قد يفيض فيصبح مضرباً للأمثال ، ومصدراً للعبر وبعيد الأثر في حياة الأجيال . ألا تذكر سيل العرم (ص ٣٠ / ٣١) أما السيل فهو الشعب الثائر ، وأما العرم فقوة الثورة الاجتماعية الهدامة .

قال المتنبي :

نامت نواطير مصر عن ثعالبها ... وقد بشمن وما تفنى العناقيد

نامت نواطير مصر عن ثعالبها ، وما زالت هذه الثعالب تأكل وتشرب حتى يدركها البشم فلا يزيدها إلا نهماً ، كأن بطونها تلك الآنية التي أشارت إليها الأساطير اليونانية والتي ليس إلى ملئها سبيل . أما النواطير فقل المتنبي عما أراد بها . أما أنا فأفهم منها الشعب ، وأظنك لا تنكر أن الشعب ما زال نائماً بل قل أن الشعب يتظاهر بالنوم لأنه يعمل وينتج ، وينام لأنه لا يجني ثمار عمله من هذه الثعالب (ص ١٣٦) ..... وفي هذا تصوير رائع لتعاسة الشعب ، كأنما هو يقول أيها النواطير (التي هي الشعب) تنعمي الثعالب التي تمتلئ بدمائها من ثمراتك . وإذا أردت المزيد من هذا فاظر ص ١٩٤ و ١٩٥ و ١٩٦ و ١٩٧ . ولكن إذا أردت أن تلمس الدعوة إلى أشياء وأشياء فاقرأ ما كتب تحت عنوان « رعشة » (ص ٩٣) أن الشعب سيد نفسه وأنه مصدر السلطات (حسن) وأنه بذلك هو الراعي وهو الرعشة (أحسن) بذلك يحدثه الدستور ، وهو إن لم يصدق الدستور اليوم ، فقد يصدق غداً . واقرأ في (ص ١٩٤) : ما دام في الأرض سادة يتحكمون ملأت الألوف ، وخدم لا يملكون شيئاً وفرص للهو يتفق فيها المال ، فكر العصور واحدة وإن طال الزمن .

وفي الكتاب هجاء ينتقد المؤلف أنه أشد فنون الأدب ملاءمة لعصر الانتقال الذي نحن فيه (وعسى أن لا يضيق بالهجاء ذرعاً إذا كان صادق العقيدة في ذلك) .

ومن أمثلة الهجاء أن فلاناً يرى نفسه ساكناً بالطبع (ص ٧٩) والصورة المختارة من المثقفين

تكرم كاتباً يحسن الخطأ أكثر مما يحسن الصواب (ص ٨٥) فلان قاطع الناس غير واحد منهم ، فلعله ينتظر منه نفعاً فهو يسايره حتى يبلغ آخر ما عنده ، ثم يلحق بالآخرين (ص ١١٦) ؛ عصر الانتقال : أشد فنون الأدب له ملاءمة من الهجاء (ص ١٢٥) ، من الوزراء من يتخذون زينة (ص ١٢٧) ويقصد المؤلف انهم كالأشياء الأنيقة وإصص الزهور والخزف القديم مثلاً . فلان يخلط في كتابه عن حياة النبي (صلعم) تخليطاً شديداً ، لأنه عرض لما لا يحسن من الأمر ، وقال فيه بغير علم (١٣٠) ولعله يرمز الى صديق قديم قارضه الثناء ، أو بالحري انهما تقارضا الثناء على صفحات الجرائد زمناً ، فلما وصلا تدابرا ، ولم يبق أحدهما إلا صاحبه عندما فرغت الجبة ، وقول المؤلف في عبارة « نفع » ص ١١٦ خير ما يقرأ ختاماً لصداقتهما ، وانظر قوله : شعب يجري أمره على جهل الشباب وطيشهم من جهة ، وعلى ضعف الشيوخ وحمقهم من جهة أخرى ، هو شعب ناهض يسعى الى المجد بخطو سريع !! (ص ١٥٦) أما المؤلف فليس من الشبان وليس من الشيوخ ، فهو الذي يقول «أباه إذا سأل سائل : هل أليس ملكاً رجلاً رشيداً ... يرمز به نفسه بقوله السلام

وقد يتفق للمؤلف ان يحاول رسم صورة لشخص فيزل ، وإذا به يصور نفسه . . وإذا شئت من ذلك شيئاً فاقرأ «وصول» (ص ٣٧) ، واقرأ «غيره» ص (٩٥) ، فان المؤلف في هذه المقطوعة «خاصة» قد نم عن نفسه بجلاء . فانها تدل على انفعال ذاتي ، لا انفعال موضوعي . والانفعال الموضوعي انفعال يقوم برواية أو خبر تلقاه ، أما الذاتي فهو ذلك الذي يصوره المؤلف . ودليلنا على ذلك كما أسلفنا مقطوعة «وصول» ص ٣٧ واليك هي :

« لم يكن شيئاً ثم ارتقى حتى صار شيئاً مذكوراً . وقد سلك في تصعيده من الحضيض إلى القمة طريقاً وعرة ملتوية ، يتسترها ضوء الشمس من وراء نقاب من السحاب أحياناً أخرى ، ويحجبها ظلام قاتم داجم في كثير من أجزائها . فلما ارتقى الى القمة واطمأن في مكانه منها ، نسي ماضيه كله ، وأعرض عن مستقبله كله ، وعاش ليومه الذي هو فيه » .

« نسي الماضي فلم يتعظ ، وأعرض عن المستقبل فلم يتحفظ ، ومضى مع هواه طاغياً باغياً ، حتى أخاف الناس من نفسه ، وأخاف نفسه من الناس ، فلم يأمن إلى أحد ، وإذا هو مضطر الى أن يظهر الحب لقوم يبغضهم أشد البغض ، وإذا الناس من حوله مضطرون إلى أن يظهروا له حباً متهالكاً وليضمروا له بُغضاً مهلكاً . واذا الأسباب بينه وبين الناس ترث ، حتى ان أيسر الأمر ليتهي بها الى الانقطاع » .

«قال الفتى لاستاذه : لقد سمعت منك ، ولكني لم أفهم عنك ، وإنك لتحدثني بالألغاز منذ حين ، فماذا تعني وإلام تريد ؟

« قال الشيخ : إن حب الاستطلاع إن تمع في بعض الوقت فقد يضر في بعضه الآخر ، وما عليك أن تفهم شيئاً وتغيب عنك أشياء ! إنما هي سَرَايا تُنْصَب للناس ، فينظر فيها من يشاء ، وليُعْرِض عنها من يشاء . وربما كان الإعراض عنها خيراً من النظر فيها . فقد ينظر فيها من يحب الاستطلاع مثلك فيسوءه ما يرى ، لأنه يرى نفسه » . انتهى « وصول »

قال دمنة : كان صاحب هذه الصورة حرًّا دستوريًّا ، فشنَّ غارة شعواء على سعد وصحبه من الوفديين في جريدة اسمها « مصر » ، وأخذ الدستوريون يؤيدونه ، حتى إن رئيس وزارة منهم أحدث أزمة سياسية أمام مجلس النواب ، فارتقى بذلك بعض الدَّرج وصَعَّدَ في طريق وعرة ملتوية ، فلما علم أنه تسنم أعلى ما يمكن أن يصعدوه من الدرجات ، انكفأ إلى أصحاب سعد من الوفديين ، وشنَّ غارته الشعواء على الدستوريين عند ما شعر بأنه ليس لديهم درجات يصعدها ، وأمعن في ذلك حتى لقد همَّ بأن يظن أحدهم وهو له أستاذ وكفيل وناصح ، عند ما استقال من الجامعة احتجاجاً على وزارة أرادت أن تُسلب استقلال الجامعة ، فارتقى بذلك بعض الدَّرج وصعَّد في طريق وعرة ملتوية . أستغفر الله ، أنه لم يهم فقط بظن أستاذه وكفيله ، بل لقد ظنه بالفعل . ثم ارتد إلى الأحرار الدستوريين بعض الزمن لما وجد عندهم درجات يصعِّد فيها ، ثم رجع إلى أنصار سعد ، لما فرغت درجات أصحابه الأوَّلين .

ما هذه المرآة ؟ هي إحدى السَّرَايا التي يطل فيها المؤلف ، فيرى صورة نفسه . وما هو الحافز المستتر وراء هذا التقاضي المتبادل بين الناحيتين ، ناحية حزب الكثرة وحزب القلة جميعاً ، وفلان هذا ؟ الحافز أنه يحتاج الى الحزبين ، وأن الحزبين يحتاجان إليه (ص ١٨٨) ها هو ذا مفتاح نفسه . أستغفر الله ثانية ، بل وقُفْل نفسه أيضاً .

وفي الكتاب مواضع للنقد من حيث الاسلوب ومن حيث التفكير . أما في بحرعه فعمل أدبي يحفز الى تحريك الفكر . وجدير بجهد أدبي يحرك الفكر ، ان يكون له اثره الثابت في الحياة .

جملة القول أن طه حسين قد أعطى بذلك الكتاب مفتاح نفسه ، فاقرأه فيه رمزاً وحقيقة ، وأبين ما تقرأه فيه إذا ضاق صدره بالرموز ، فانه حينذاك يُسْفر ، فتتضح ملامحه . ولله الحمد فقد عرفنا انه اشتراكي ولم نكن نعرف ذلك ، وعرفنا انه يعتقد أن المصير أدب عصور الانتقال .

الماء

الماء هو العنصر الثاني الضروري للحياة بعد الهواء . فالانسان يستطيع أن يبقى بدون طعام عدة أيام ، ولكنه لا يمكنه أن يبقى في الحياة بغير الماء إلا ساعات معدودات .

وقال الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم « وجعلنا من الماء كل شيء حي » لأن حوالي ٨٠ ٪ من تركيب الكائنات الحية على اختلاف أنواعها يتكون منه . والانسان أول هذه الكائنات ، فانه يكون الجزء الأكبر من تركيب أنسجته ودمه وافرازاته المختلفة .

وماء الجسم يستعمل دائما في أتمام وظائفه الفسيولوجية . فهو يخرج من الجلد عرقا ، ومن الكليتين بولا ، ومن الرئتين بخار ماء ، ومن الغدد افرازات مختلفة . كما انه يستعمل في عمليات الهضم من بدء افراز اللعاب على الطعام ، الى التمثيل الغذائي ، ثم نقل الدم والغذاء لأنسجة الجسم المختلفة ، وأيضا في عملية اخراج فضلات الطعام .

ويقتضي أن يعوض هذا الماء المستعمل في وظائف الجسم ، وإلا نقصت نسبة الماء به ، فتتعطل وظائفه الحيوية ، أو تقع على وجه ناقص مبتور ، يترتب عليه ضعف الجسم في أعضائه المختلفة . وما الجسم الذي لا يمد بحاجته من الماء ، إلا كمزرعة جافة يتعطل نموها وانتاجها .

وثمة كثيرة من الناس لا يعدون جسامها بالماء الضروري لها . فهم يرون بقدر الدم ، لأن نقص الماء معناه قلة الدم ، كما يعدون الامساك لأن الامساك سببه الاحتياج الى الماء ، وتتسع أنوفهم وتتضخم أعصابهم ، وتنبعث من أفواههم رائحة كريهة . وتتأثر افرازات غدهم الحيوية كالعاب والمرارة والبنكرياس والعصارة المعدية وغيرها . ويحتاج الانسان الى نحو خمسة كيلوات من الماء كل يوم على الأقل ليعوض ما يفقده الجسم في أتمام وظائفه المختلفة . والماء أعظم منقي للدم ، وهو يمنع تراكم المواد الضارة بالقولون ، ويحفظ الجهاز الهضمي وكذا الأجهزة الأخرى من الجسم صحيحة نظيفة ، مما يكسبها مناعة ضد تلك الجراثيم وسمومها .

« فاشرب الماء بشره ولا تأكل بشره » وهذا نصح كريم من به الرسول صلوات الله عليه في حديث شريف له . وعند تمام شرب الماء أن تتبع فيه الطريقة الآتية : —

١ — بعد الاستيقاظ من النوم صباحاً اشرب بقدر ما تستطيع بعد أن تغسل أسنانك .

٢ — لا تشرب على الأكل ، حتى لا تسهل طعامك ، ولكن بعده بثلاث ساعات اشرب ما شئت من الماء القراح .

٣ — انقطع عن شرب الماء قبل الأكل بنصف ساعة ، حتى تعد الجهاز الهضمي للاحساس الطبيعي بالجوع .

٤ — اشرب أقية قليلة جداً من الماء في نهاية الأكل ، حتى تليين الكتلة الغذائية .

٥ — اذا شربت الماء مصه كما يشرب الطفل لبن أمه ، واحفظ الماء قليلا في فمك وأنت تشربه .

٦ — اشرب مكثرة ، ولكن كميات قليلة في كل مرة ، وضع في محل عملك ، وفي مكتبك ابريق ماء واشرب كوباً منه بين الفينة والأخرى ، وعود نفسك أن تشرب دون أن تحس العطش .

٧ — اشرب قدحاً من الماء قبل أن تنام .

اتبع هذا النظام شتاء وصيفاً ، فلا يصيبك على الاطلاق تصلب في الشرايين ، ولا ضغط في الدم ، ولا احلام ، ولا حصوات في الكلى ، أو في غيرها ، ولا امساك ، وما يترتب عليه من أمراض مختلفة عديدة . ولقد سئلت مرة من رجال الصحافة بلندن الانكليزية عما كنت بها أحاول غير الفاتش من سر صحتي ، فأجبت « انه من شرب الماء » . فكيف تشرب الماء ، وفي تشربه ، فيم من شؤون الصحة ، تفعله مما بينته لك . واذا ذكرت لك الماء كشراب ، فانه لا أنسى ذكره لك ، كأداة لتنظيف جسمك . فعليك بالوضوء والاستحمام حتى يبقى جسمك صحيحاً قوياً ، لا يمرض غير مرضة الموت .

نسأل الله